إصلاحات الأمير عبد القادر الجزائري وخير الدين التونسي

_ دراسة مقارنة _

Reforms of Emir Abd al-Qadir al-Jaza'iri and Khair al-Din al-Tunisi _ Comparative study _

1– درار عبد الرحمان*، جامعة عمار ثلجي الأغواط(الجزائر)

a.derrar@lagh-univ.dz

2– علالي محمود، جامعة عمار ثلجي الأغواط(الجزائر)

M.allali@lagh-univ.dg

تاريخ الاستلام: 2022/04/20 تاريخ القبول: 2022/10/08 تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص

شهدت دول الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط مطلع القرن (19م) تحولات فكرية؛ نتيجة التطلع نحو مواكبة التحضر الأوروبي؛ منها المحطات الهامة التي عرفتها الجزائر مع "الأمير عبد القادر" والبلاد التونسية مع "خير الدين التونسي" وهما نموذجان جديران بالدراسة والبحث في مستواهما الحضاري والفكري والإنساني، نحاول الكشف عن بعض مجريات تلك المشاريع في شكل دراسة مقارنة بينهما، من حيث معطيات الحقبة التاريخية في البلدين والإستراتجيات التي تبناها كل منهما؛ لتحديث الأنماط الهامة لبناء الدولة الحديثة، وإسهامات تجسيدالاصلاح واقعا ملموسا، كما يتطرق المقال للتحديات التي اعترضت أو عرقلت مسار الرجلين في بلوغ المطامح المنشودة والوصول بالشعوب المغاربية إلى نصاب الدول القادرة على فرض سيادتها وهيمنتها في محيطها الجغرافي.

كلمات مفتاحية:.، الإصلاح.،الأمير عبد القادر،خير الدين التونسي.

*- المؤلف المرسل

Abstract:

At the beginning of the 19th century, the western basin of the Mediterraneansawintellectual transformations as a result of the aspiration to keep pace withEuropeanurbanization, including the important stations thatAlgeriaknewwith "Prince Abdelkader" and the Tunisian countries with "KhaireddineTunisia", twomodelsworthstudying and researching in theircivilized, intellectual and humanlevel, wetry to revealsome of the courses of theseprojects in the form of a comparative studybetweenthem in terms of the data of the historicalera in the two countries and the strategiesadopted by each of them to update the important patterns of building the modern state, and the contributions of reflectingréformein a tangible reality, as well as The article addresses the challenges that have challenged or obstructed the twomen'spath in reaching the aspirations of the Maghreb people to the quorum of countries capable of imposingtheirsovereignty and dominance in theirgeographicalsurroundings

Keywords:réforme;Prince Abdul Qadir;Khair El-Din Al-Tunisi;

- **مقدمة:**عرفت دول الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط مفارقات فكرية وحضارية بين ضفتيه مطلع القرن التاسع عشر (19)، برزت تجلياتها ومعطياتها مع الرحالة المغاربة، الذين عادوا من أوروبا، وعبروا عن انبهارهم في حضارة الأوربيين، من خلال كتاباتهم _الرحلات_ منتقدين الوضع العام في الدول المغاربية، وساعين إلى تجسيد تصوراتهم لمواكبة الواقع الأوروبي، غير أن أفكارهم وآراءهم تنوعت بين الناقد والناقم، وانعكس ذلك على تجسيدهم الميداني، ويبرز هذا الاختلاف والتنوع في التجسد بين الأمير عبدالقادر (الجزائر)وخير الدين التونسي(تونس) في التعاطي مع مسألة الإصلاح؛ من حيث الواقع في البلدين ومواطن التجسيد والأولويات في التطبيق، والنتائج المترتبة عن كل تجربة، كما أن التجربتين تشابهتا في النهوض بشعوب البلدين نحو مستوى أحسن، ودفع

العدوان الفكري والعسكري على المنطقة المغاربية، والتطلع نحو بناء دول مغاربية حديثة في كيانها وأصيلة في مرجعياتها، ومعتقداتها، وقادرة على فرض هيمنتها، وسيادتها في بلدانها ومحيطها.

ورغم الهزائم التي منيت بها البلدان المغاربية بعد القضاء على مساعي الرجلين، وتمكين الاستعمار لسياسته الرامية لقمع كل شعاع يبث روح التصدي في عقول ظلت بعيدة لفترة طويلة عن أمجادها، إلا أن تلك الجهود وانعكاساتها حصنت المنطقة، وبعثرت استراتيجيات الأوربيين، وعرقلت طموحاتهم الاقتصادية والدينية، وتتمثل في مشاريع الإصلاح،والمقاومة العسكرية والفكرية التي انطلق منها الرجلان لإبعاد أخطار الحضارة الغربية، وهي الخلفية التي أوقعت الثغور البعيدة عن مركز الخلافة العثمانية فريسة القوى الأوربية، ونود من خلال المقال تبيين ذلك في إطار دراسة مقارنة بين "الأمير عبد القادر الجزائري"و خير الدين التونسي"، ويكمن الإشكال المتعلق بمحاور المقال في التساؤل الذي ينتاب الباحث عند إدراك الحقيقة التاريخية، والمعطيات الظرفية، والطموحات الإصلاحية،و من هذه التساؤلات: ماهي ماهية المشاريع الإصلاحية التي نفذها الرجلان، وجسدها أم اواقع في المنطقة،و فرضت على الأطماع الأوروبية وجودها، وما وجه التشابه بينهما في التجسيد، والأولوية، والنتائج؟ وما وجه الاختلاف بينهما كذلك؟ ولجمل الموضوع ومناقشته بطريقة يمكن من خلالها استخلاص النتائج يتعين معرفة العناصر التالية:

1. حياة الرجلين والمعطيات الظرفية لهما: شهدت منطقة المغرب العربي مع مطلع القرن التاسع عشر (19م) انحطاطا فكريا و سياسيا شملت أجزاؤه مجالات مختلفة، وخيم على المنطقة بصفة إجمالية، رغم التمايز في الأنظمة السياسية، فالمفارقات لم تكن بين هذه الدول في المستوى الحضاري، وإنما بين ضفة شمالية عاصرت الركب الحضاري، وأخرى جنوبية واكبت تراجعا حضاريا، ومؤشرات وتداعيات الانهيار والسقوط الحضاري كانت قد استحكمت في شعوب المغاربة عامة، والجزائريين والتونسيين خاصة، لتوفر معطيات خارجية وداخلية بعيدة نوعا ما عن الأقطار الأخرى؛ يمكن إدراكها واستيعابها في تدليل واقع البلدين(الجزائر و تونس) وتأثير ذلك على شخصية الرجلين.

1.1 .واقع الجزائر عصر الأمير عبد القادر: ولد الأمير عبد القادر يوم الثلاثاء 06 سبتمبر1808م بالقيطنة؛ ضواحي مدينة معسكر الجزائرية في ظروف سياسية عرفتها

الخلافة العثمانية عامة، والجزائر خاصة؛ محورها التفكك والتخبط في تحديات داخلية؛ ساهمت في إحداث هوة بين السلطة والشعب، وأخرى خارجية؛ تمثلت أساسا في التحالفات الدولية، والأطماع الأجنبية، تعود أصوله إلى الحسين بن علي رضي الله عنه تربى في بيت محافظ، وأجاد علوم كثيرة، ومن شمائله؛ الفروسية، التي جعلته محل ثقة أبيه في توليه المهمة، التي أوكلت له من طرف زعماء القبائل الجزائرية، وتوافق شبه عام وسط السكان، خاصة المناطق الغربية من البلاد، سافر إلى الحج رفقة أبيه، وبقدر ما هي رحلة حجازية تعبدية[1]، إلا أنها تعد منعرجا حاسما في حياته، استوعب من خلال مجرياتها وأحداثها ظروف الأمة الإسلامية، وأدرك حقيقة واجباته ومسؤولياته تجاه أمته.

كانت سلطة الأتراك قد انتهت رسميا بتوقيع الداي معاهدة الاستسلام 5جويلية 1830م، وبقي نفوذهم منحصرا وممثلا في شخص باي قسنطينة (الحاج أحمد باي)، الذي حاول رد الاعتبار لهم ولطموحاته السياسية، ولكن دون جدوى، كما ظهرت مقاومات عديدة في المناطق القريبة من العاصمة متفرقة وتفتقر لعنصر الربط فيما بينها، _ وهذا الأمر صورة واضحة عن التفكك والتبعثر الناجمين عن الأوضاع التي كانت تعيشها الجزائر([2]) ومنها مقاومة الأمير عبد القادر، الذي أعادت الثقة في نفوس الجزائريين، وعلقوا عليه أمانيهم ومساعيهم للنصر على الفرنسيين، تولى زمام العمل عام 1832م، وعمل على وضع إستراتيجيات وقواعد صلبة لبداية التحرك ضد الفرنسيين، ولم يكن شأنه إبطال خطط العدو فحسب، بل غايته أبعد من ذلك.

إن الأمير طموحه كبير، وغايته هي جعل الجزائر قوية من جميع النواحي العسكرية والاقتصادية والسياسية، قادرة على صد أي هجوم أجنبي مسيحي، في وقت تكالبت فيه القوى الأجنبية على مناطق الغرب المتوسط؛ إما نفوذا أو استعمارا، ومما لا شك فيه أن

1 -نزار (اباطه)، الأمير عبد القادر العالم المجاهد، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1994م، ص10

[2]- حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، تعريب، تحقيق: العربي الزبيري، منشوراتANEP، الجزائر، 2005م، ص ص 187_189.

الأمير كان يدرك ذلك بوضوح؛ إذ لم يثق في أي من الزعامات المجاورة لدولته، بل هو الأمر الذي بلور لديه فكرة الوطن ومسألة الدولة حسب معطيات تلك المرحلة.

2.1. واقع تونس عصر خير الدين التونسي: يعود أصول خير الدين التونسي إلي قبائل الشركسية بالقوقاز، ولد عام (1820م، 1890م)، اختطفته عصابة من الفرسان وبيع مملوكا في سوق الرق[1]، وتتميز هذه المناطق القاسية بطبيعة الجبال الشاهقة(جبال الأناضول) وأشجار كثيفة، وعموما جيولوجيتها صعبة التأقلم والتكيف، فينعكس ذلك على طبائع سكانها؛ أما عن ارتباطه بتونس الوطن، الذي اشتد به أزره وقويت به عزيمته فتشير الروايات، أنه اشتراهأحد وكلاء تونس المبعوثين من طرف "المشير أحمد باي" بتونس إلى الأستانة، وعند وصوله إلى تونس أدمج في صفوف مدرسة "بارادو"[2]، وتعلم العلوم الأدبية والشرعية، وأجاد اللغة التركية والفرنسية[3] كما تشبع بالثقافة الحربية والعسكرية[4]، فكانت شخصيته نموذجية بين أقرانه وذاع صيته في البلاد التونسية، وهذا ما جعله محل أنظار النخبة والحكام في تونس، بدايات منتصف القرن التاسع عشر(19)، وتعدى الأمر لأن ينال إعجاب السلاطين العثمانيين في الباب العالي كما سنوضح لاحقا.

1- الصادقالزمرالي، **أعلام تونسيون**، تقديم: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2013م، ص 98.

2- مدرسة باردو: هي المعهد الحربي الذي أسسه المشير "أحمد باي" 1840م، لتخرج الضباط ، تعد الأولى من نوعها في تونس وعمل على جلب الخبراء لتكوين والتدريب من تركيا وأوربا وهو النواة الأولى لنشر الثقافة العصرية في تونس تخرج منه العديد من النخب التونسية مثل: خير الدين التونسي، والقائد رشيد والفريق حسين وغيرهم: ينظر حسن حسيني عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، (دس)، ص ص167_168.

3- محمد بيرم الخامس، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، المجلد1، الجزاء 2، دار صادر، بيروت لبنان، ص 49.

4- عز الدين حسن(مجد)، النهضة والإصلاح عند خير الدين التونسي ، مجلة أبعاد، جامعة وهران، العدد 07، (الجزائر) 2018م، ، ص 03

حضي "خير الدين التونسي" برحلة تفاوضية[1] إلى فرنسا مع "المشير أحمد باي" سنة 1838م، فأظهر كفاءة سياسية متمكنة، وقدرة على التفاوض والإقناع؛ مما جعله ينحاز عن مجاله العسكري، ويقتحم مجال السياسة، فكان بحق نعم الرجل السياسي، وهذا ما شهد له المعاصرون به والباحثون في تراثه ومخلفاته الفكرية، ويبدو أن الرحلة رغم إطارها السياسي والدبلوماسي، إلا أنها كانت درسا تطبيقيا وعمليا "للتونسي"، الذي ما إن عاد تشوق للرجوع إليها؛ ليستكمل استلهامه الحضاري، ويستوفي معالم الحداثة والتطور؛ التي تثير الانبهار والإعجاب في نفوس شعوب الضفة الجنوبية من دبلوماسيين، وتجار، ورحالة مستكشفين.

عاصر "خير الدين التونسي" خلال استفاقته المشير "أحمد باي" (1837م/ 1855م)، ولاحظ تلك الإصلاحات العسكرية، التي أقدم على إنجازها؛ إذ لم يكن بعيدا عن السلطة ومؤسساتها ورجالها، وكان هدف "المشير أحمد باي" المشدود النظر للحداثة العسكرية تكوين جيش نظامي حديث على النمط الأوربي، مقتفيا طريقة "محمد على" في مصر، فأقدم على طلب مساعدة من فرنسا؛ تمثلت في إرسال فرقة عسكرية للإشراف والتدريب1843م([2])، وقد كلف تسليح وإعداد وحدات الجيش الخزينة أموالا كبيرة، والغريب في الأمر أن هذه الإصلاحات وصفت بالشكلية والظرفية والمظهرية، ولم تحقق المقاصد المبرمجة لها([3])، كما أن ذلك الإعجاب لدى المشير أحمد باي تحول من شكله

1- تناقلت الروايات التاريخية رحلة خير الدين التونسي مع المشير أحمد باي إلى فرنسا لتفاوض حول الأموال التي اختلسها "محمود بن عياد " المكلف بجمع الضرائب في الايالة التونسية، فر لفرنسا وتجنس وطالب السلطة التونسية بتسديد أموال كان قد اشترى بها مستلزمات لتونس والشاهد في الرحلة أنها كشفت عن موهبة خير الدين التونسي "للمشير أحمد باي" فكافأه وأكرمه ينظر: أحمد أمين، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، وكالة الصحافة العربية، مصر،2017م، ص 154.

2- الشيباني بنبلغيث، **الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي 1859م/ 1882م**، مؤسسة التميمي للبحث العلمي وجامعة صفاقس، تونس، 1995م، ص ص 53، 54.

3-نفسه، ص65.

الإيجابي إلى شكله السلبي، ومن طوره التأملي إلى حالة الهيستريا، التي أصيب بها، وقادته لرسم لوحات فنية على جدران السرايا، تحمل صورا لوقائع حربية، تخلد مآثر فرنسا([1]).

أما عن فترة "محمد الصادق باي"(1855م_ 1859م)، وهي المرحلة الثانية التي عاصرها خير الدين، وتقلد خلالها منصب وزير البحر، وهذه الفترة كانت مرحلة نكسة الأسطول؛ لمشاركته في الغارات العثمانية الكبرى، وبالتالي مهمة تولي قيادته لم تكن مؤثرة في قرارات السياسة التونسية، ورغم ذلك إلا أنه خلف بصمات إصلاحية هامة منها: توسيع ميناء خلق الوادي، وإنشاء مصنع لبناء السفن، وقام بتوسيع الطرق...([2])، كما شارك في تحضير صدور وثيقة "عهد الأمان".

مر خير الدين بأزمات سياسية في تونس في الفترة (1862م/ 1869م)، فاعتزل جميع الوظائف السياسية[(3)]، وتفرغ للكتابة، وخلف أثناء تلك المرحلة كتابه الشهير "أقوم المسالك لمعرفة أحوال الممالك" وعمره لم يتجاوز 45 عاما، كشف من خلاله لبايات تونس عن قدراته السياسية، وإدراكه لمستلزمات المرحلة، التي كانت تعيشها البلاد التونسية، وهو الأمر الذي عاد به لشؤون الحكم 1873م[(4)]، وتولى مناصب سياسية، أهمها منصب "الوزير الأكبر"، وخاض غمار الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وأثبت نجاعته وفطنته في ذلك، مما جعله محل إعجاب وإكبار في عيون الساسة والقادة، ويعود الفضل له في الاستشارة التي اقترحها على الباي "محمد الصادق"، وهي تأسيس مدرسة عصرية، عرفت "بالمدرسة الصادقية"، رغم المعارضة الشديدة له في الفكرة، ولولا دعم النخبة

1- محمد بن الخوجة، **صفحات من تاريخ تونس**، تق: حمادي الساحلي، الجيلالي بن الحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م، ص328.

2- أحمدأمين، المرجع السابق، ص ص169_ 170.

3- خير الدين (التونسي)، **مذكراتي**، تحقيق وتعريب محمد العربي السنوسي، وزارة الثقافة، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 2008م، ص 25.

4- صالح زكي أحمد، **أعلام النهضة العربية في العصر الحديث**، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2001 ، ص ص 30_ 31.

التونسية له، لأجهضت المبادرة قبل أن تولد، كما يروي ذلك محمد بن الخوجة: "ولقد وجد الوزير خير الدين أذنا واعية من لدن سمو الباي، غير أن مساعيه بخصوص إحداث مدرسة للعلوم العصرية صادمتها دسائس أضدادها الذين كانوا يعملون في خفاء لإحباط سعيه"[1].

تعرض خير الدين لمعارضة شديدة بعد ذلك المشوار الحافل بالإصلاحات، التي لم تعجب بعض كبار الدولة، خاصة وزير البحر "مصطفى بن إسماعيل"[2] وغيره من وزراء البلاط التونسي الذين لم تكن في صالحهم، فأجبروه على التخلي عن منصبة، ودفع استقالته، وانسحابه من الساحة السياسية في تونس إلى الأستانة[3].

2. المقاربات والتمايز من حيث الشخصية والواقع: يتبين الاختلاف بين النموذجين في مفارقات كبيرة بين الرجلين، تكشف مدى حجم التباين بين البلديين، من حيث الظروف والمعطيات وحتى الحقب التاريخية، التي مر بها البلدان، وفي حالة إسقاط ذلك على النموذجين في كل من تونس والجزائر خلال القرن التاسع عشر يتضح ما يلي:

2. 1.أوجه التقارب: يتماثل "الأمير" مع "خير الدين التونسي" من حيث الشخصية والواقع في العديد من الجوانب، التي جعلتهما محل المقارنة منها:(الواقع، والمخلفات العلمية، والإشكالات المعاصرة المتعلقة بهما).

1- محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص 310.

2- مصطفى بن إسماعيل: ولد حوالي سنة 1850م، ابن مصطفى خزندار يوناني الأصل تولى منصب الوزير الأكبر بعد خير الدين التونسي(1877م) أواخر عهد محمد الصادق باي ونال حظوة من الباي ومكانة مرموقة، لكنه استغلها فيالإسراف والمكر،والدسائس والمؤامراتكما تصفه مصادر النخبة المعاصرين له،وهذا الأمر زاد من تعقيد الوضع في تونس وشجع الدول الأجنبية على بسط نفوذها وفي مرحلته انتصبت الحماية الفرنسية على تونس، توفي في اسطمبول سنة1802م، ينظر: أحمد عبد السلام، **مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية**، الشركة الوطنية لتوزيع، تونس، 1986م ص 114.

3- حسن حسيني عبد الوهاب)، المصدر السابق، ص188.

- توصل المفكر "مالك بنبي" إلى نظرية "قابلية الاستعمار"،بعدتأملات عميقة في واقع الأوضاع، التي كانت تعيشها الجزائر ومناطقالمغرب العربي، فيتبين لنا التشابه بين تونس والجزائر في البنية الاجتماعية والاقتصادية،وأكد ذلك الدكتور "أبو القاسم سعد الله" بقوله: احتلال العصور الحديثة التي واكبتها أوروبا للعصور الوسطى التي بقيت مرتكزة في جميع أقطار المغرب العربي،وإن كانت المصطلحات ودلالتها لا تطابق المحيط الجغرافي_، ومعنى ذلك وجود عوامل ومؤهلات في الأقطار المغاربة تثير لدى حكام أوروبا المتطلعين لحضارة مادية بسط نفوذهم وهيمنتهم على أرجاء الضفة الجنوبية[1].

- إن المتأمل في التحديات التي واجهت المشاريع الإصلاحية في البلدين (الجزائر، تونس) يدرك بأن الصعوبات الداخلية من طرف المناوئين والناقمين على سياسات التجديد ألقت بمخططاتها على استراتيجيات الإصلاح ورجاله، ووقفت حجر عثرة في استكمال إنجازه، رغم التضحيات والتحصينات لإبعاد العوائق التي تعترض سبيل حرية الإبداع، والسعي للعودة بالأمة المغاربية إلى ما كانت عليه أيام "طارق بن زياد" و"يوسف بن تشافين"، ففي تونس اصطدم "التونسي" بحملة شرسة من طرف الوزير الأكبر" مصطفى خزندار"[2]؛ لما طرح خير الدين التونسي برنامج إنشاء مجلس شورى، يهدف من خلاله القضاء على حكم الاستبداد في البلاد، وهي سياسة من شأنها قمع ذوي المصالح غير النبيلة، خاصة " مصطفى خزندار" وأمثاله الكثير في هذه الفترة ممن أوقع البلاد في دواليب الاستعمار من حيث لم يحتسبوا، وقد كان هذا سببا في دفع "التونسي" لتقديم استقالته سنة 1862م، وابتعاده عن السلطة، وتعطيل المشروع الإصلاحي مدة سبع سنوات، بقي فيها "التونسي"

1- أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر بدايات الاحتلال**، ط3، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص01

2- مصطفى خزندار: يوناني الأصل بيع مع أخيه في أسواق اسطمبول، ثم بيع مرة أخرى لبايات تونس تربى في أحضان الأسرة الحاكمة في تونس وتعلم بها رفقة المشير أحمد باي علوم الدين وتولى أمور القصر ثم عين وزيرا أكبر في عهد أحمد باي عرف بضعف شخصيته وفساده الإداري تسبب في أزمات اقتصادية وتدخلات أجنبية، ينظر: الشيباني بن بلغيث، المرجع السابق، ص68.

يستشار فقط في المسائل العالقة، ويحضر بعض الاجتماعات، وسيعرف مشروعه النور بعد نهاية المدة، وإزالة الوزير الأكبر([1])، ولم يكن مشروع الأمير عبد القادر الجزائري بمنأى عن الاضطرابات الداخلية، والخلافات السياسية مع القادة الجزائريين، ورجال المقاومة (أحمد باي)، وانقلابات الموالين له ذوي المآرب السياسية التي هي بعيدة عن تحقيق الصالح العام (فرحات بن السعيد، ومصطفى بن إسماعيل...)[(2)].

- تتشابه شخصية الرجلين في الإشكاليات التي يثيرها المؤرخون المعاصرون، بين تصنيف الأمير كرجل دين، أي أن نشاطه وجهوده متعلقة بأهداف دينية وروحية، وبالتالي لا تمايز بينه وبين جهود المقاومين الجزائريين ذوي الأبعاد القبلية والروحية، وإيمانا بهذه الفكرة الخاطئة نبرر النظريات الفرنسية الاستعمارية([3])، أم رجل دولة، فمن غايته تكون كيانا سياسيا ووطنا مستقلا له مقوماته ورموزه ومبادؤه وسيادته الكاملة، وفق النمط الحديث([4])؛ أما خير الدين فيصنف كرجل فكر، لما خلفه من إرث حضاري وأفكار ومبادئ وآليات التحضر، والتي احتواها كتابه "أقوم المسالك"، أو رجل دولة بالنظر لما حققه من تجسيد لقناعاته الفكرية في البلاد التونسية في الفترة التي تولى فيها سدة الحكم[(5)]، والحقيقة أننا إذا حصرنا أعمال خير الدين في الفكر، فهذا تحجيم لقدراته وإمكانياته،

1- فتحي معفي، النخبة التونسية وحركة الإصلاح خلا القرن التاسع عشر، **المجلة المغاربية لدراسات التاريخية والاجتماعية**، جامعة تبسة، (الجزائر)،المجلد10، العدد 02، 2019م، ص 11.

2- هنري تشرشل، المصدر السابق، ص164.

3- يبرر المؤرخون الفرنسيون وجودهم الاستعماري في الجزائر بعدم وجود سلطة محلية في الجزائر والحقيقة أن الفوضى التي عاشها الجزائريين بعد انهيار السلطة كانت مدتها قصيرة و طلب السكان البيعة من الحاج محي الدين وما جسده الأمير عبد القادر فيه رد كافي لتفنيد ذلك لوجود كل معاير وشروط الدولة الحديثة في المشروع الإصلاحي الذي بناه حسب معطيات تلك المرحلة: ينظر: أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج 2، دار الغرب الإسلامي، 1992م، بيروت، ص 168.

4- الحسين عماري، الأمير عبد القادر رجل دولة والقائد العسكري، **مجلة العصور**، جامعة وهران،(الجزائر)،العدد(14_15)، 2014م، ص ص4_8.

5- صلاح زكي أحمد، المرجع السابق، ص29.

والأمير في حالة إبعاد عنه فكرة الدولة الحديثة، نكون قد أجحفنا في حقه، وهذا حسب تقديرينا وما استنتجناه من خلال البحث.

_يتوافق الأمير عبد القادر مع خير الدين التونسي في الرصيد المعرفي والإرث الفكري والحضاري الذي خلفه كل منهما للأجيال التي تريد أن تنهل من طموحاتهما في دفع الظلم والاستبداد، ونشير إلى البعض منها: فالأمير عبد القادر خلف أعمالا دينية وفلسفية وتاريخية قيمة، دونها بعد نهاية مقاومته في الجزائر؛ مثل كتابه "المواقف"، و"ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، وكتبه "الصافنات الجياد"، و"المقراض الحاد"، حسب رأي الدكتور أبو القاسم سعد الله"[1]، وأما التونسي فقد خلف ثروة فكرية قليلة في حجمها وكبيرة من حيث محتواها خاصة كتاب "أقوم المسالك لمعرفة أحوال المماليك" الذي بلغ آفاقا عالية عند المثقفين والسياسيين، بالإضافة لأوراقه الرسمية ومذكراته التي طبعت بعد وفاته[2].

2. 2. أوجه التمايز: تتمايز شخصية خير الدين التونسي عن الأمير عبد القادر في جوانب كثيرة،نعالج منها الاختلاف البارز في المدارس، نسبة التفاعل مع الواقع الأوروبي، معطيات الواقع في كل من الجزائر وتونس.

_يختلف التونسي عن الأمير عبد القادر في المسار التعليمي؛ حيث تلقى التونسي تعليمه في مدارس عصرية على غرار "مدرسة باردو العسكرية"، كما درس في فرنسا، وأجاد اللغة الفرنسية، واحتك بنظم الحضارة الغربية بشكل مباشر، فمعالم الإصلاح استمدها مما اطلع عليه من التراث الفكري والفلسفي الأوربي؛ إذ يعد الوحيد خلال القرن التاسع عشر

1- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص171.

2- ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة (1798_1939)**، ترجمة: كريم عزقول، دار النهار للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، د،س، ص 113.

المزدوج الثقافة[1]؛ أما الأمير عبد القادر فتعليمه لم يخرج عن مسقط رأسه وبعض العلوم التي تلقها أثناء رحلته للحج، ولكن المؤهلات الفطرية ونباهته صنعت منه القائد المحنك، وتطلعه لتجسيدالنظم الأوربية وخاصة في المجال العسكري، ما نقلته كتب الرحلة، وما عاينه خلال الدخول الفرنسي للجزائر، بالإضافة إلى سياسة استقطاب الخبراء والمستشارين، إذ لم يكن احتكاكه بشكل مباشر مع النظم الغربية وبالتالي بقيت شخصته بعيدة عن التأثير الغربي، وسياسة الانفتاح، ورغم التعاملات الاقتصادية بينه وبين القوى الأوربية والعلاقات الدبلوماسية.

-إن الرحلتين التي أداهما خير الدين لفرنسا انعكستا على شخصيته، ويبدو ذلك من خلال أفكاره الانفتاحية، وسبب ذلك معايشته للواقع الفرنسي خاصة، والأوروبي عامة، ولهذا لم يكن يرى إشكالا في اقتباس النظم السياسية، وتطبيق التمدن الأوروبي في تونس، وهذا على حد قوله: "لا يتهيأ لنا أن نميز ما يليق بنا على قاعدة محكمة إلا بمعرفة أحوال من حفبنا، وحل بقربنا..."[2]، والعبرة عنده بالنتائج التي وصلت إليها أوروبا، لكن المعطيات المطروحة في تونس، والفكر النخبوي، وأنماط العيش، وآليات سير السياسة التونسية لم تستقبل مشروعه التونسي بالشكل الذي يطمح له، ولهذا شهدت المرحلة صداما فكريا بين أيديولوجية محافظة، وأخرى تدعو للانفتاح والتمدن العصري، ويبدو أن قوى النفوذ والمحافظين على مصالحهم ظلوا متمسكين بدواليب الحكم، وسايروا طموحات القناصلة الأوروبيين، وهو ما أوقع تونس في مخططات الاستعمار.

-لم يعايش الأمير عبد القادر الواقع الأوروبي مثل التونسي، وإنما ارتكز انبهاره فقط من خلال الروايات كما أسلفنا، فشخصيته إذا ما قورنت بالتونسي، كانت أكثر تمسكا بالنظم

1-عبد القادردوخة، الإصلاح العسكري عند النخبة العسكرية المغاربية خلال القرن التاسع عشر(بين التنظير والتطبيق)، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر02،(الجزائر)،العدد 15، 16، 2013م صص 346، 359.

2- خير الدين التونسي، **أقوم المسالك لمعرفة أحوال الممالك**، تقديم: محمد الحداد، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 2012م، ص 4.

الإسلامية ومراعاة للواقع، والمعطيات الظرفية التي كانت تعيشها الجزائر، وأكثر حرصا على تطبيق القوانين المعمول بها عند المغاربة، وهذا لا يفهم منه أنه عارض نظم أوروبا بل اقتباسه لم يؤثر على تراكمات تكوينه ونشأته المحلية والوطنية، ويقول "هنري تشرشل"بصدد ذلك:"وقد برهنت التجربة أن الأمير كان لا يعارض الأخذ بالحضارة الأوروبية مادامت لا تعارض مبادئه"[1].

-يختلف الواقع الجزائري عن الواقع التونسي في عصر الرجلين في أحداث كثيرة ووقائع يمكنها أن تحدث الفارق في المشروعين الإصلاحيين الذين عرفهما القرن التاسع عشر، ففي الجزائر كان الاستعمار قد استحوذ على العاصمة وأنهى معالم وجود دولة قائمة، فكانت المهمة صعبة أمام الأمير عبد القادر؛ لأن المشروع ينطلق من أوضاع لم يسبق لها أن عرفت تجارب الإصلاح، مع وجود معطيات وتداعيات أكثر تعقيدا من البلاد التونسية، فضلا عن المواجهة والوقوف في صد العدوان الاستعماري الغاشم؛ أما في تونس فالمعطيات كانت أكثر تماشيا ومشروع النهضة؛ فالإصلاحات كانت أرضيتها مبسوطة،لأن السلطة قائمة والسلاطين استجابوا لذلك، وأيدوه، وسعوا لتحقيقه، كما أن المشروع التونسي بني على تجارب سابقة، والمجتمع التونسي كان مجتمعا نخبويا؛ نتيجة بث المدارس الحديثة روح الإصلاح فيه،على غرار المعهد الحربي والمدرسة الصادقية[2]، وسلسلة الإصلاحات مهد طريقها "المشير أحمد باي"، وبالتالي فقد كان خير الدين أكثر حظا من الأمير في نجاح مشروعه، لولا التعثر الحضاري والتخلف المادي الذي لم تسلم منه تونس ولا الجزائر.

1- هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 23.

2- المدرسة الصادقية: تأسست في عهد المشير محمد الصادق باي بتدبر من الوزير الأكبر خير الدين التونسي، وبعد استشارة النخبة التونسية سن لها قانون التأسيس 13/ 01/ 1857م، وحدد برنامجها والعلوم التي تدرس فيها ومنها العلوم العصرية على غرار علوم الصحة ....إلخ للمزيد ينظر: محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص ص 309_ 311.

3.مشاريع الإصلاح في البلدين: توحي التقارير التي دونها المغاربة في رحلاتهم بشدة الانبهار في زخم الحداثة الأوروبية و النظم السياسية والعسكرية،وتعد النخب التونسية _ على غرار" محمود قابادو (1815م/ 1874م)، ومحمد بيرم الخامس،(1840م/ 1884م)، وخير الدين التونسي(1820م/ 1890م) _ والجزائرية كذلك أمثال: محمد بن محمود العنابي (1775م/ 1850م)، عثمان بن حمدان خوجة(1773م/ 1842م)، والأمير عبد القادر (1808م/ 1883م)، أكبر المعجبين بالحداثة الأوروبية، فامتزجت تصوراتهم بين مكتفي بالتأثر، وناقد للوضع العام في بلدانهم،وبين مستوعب لذلك، ودارك لخطورته، خاصة بعد الحملة الفرنسية على مصر1789م، وحملة اللورد أكسمورث على الجزائر1816م، فسارعوا لتجسيد ما أمكن في مختلف الميادين التي يمكنها أن تنهض بالأمم المغاربية إلى نصاب التمدين الأوروبي، ويرجع الاختلاف بين المتأثرين والمحاولين التجسيد إلى المكانة التي يتولاها كل منهما، فالمتأثرون كالتجار والعلماء والرحالة سجلوا انطباعاتهم مكتفيين بتوعية الشعوب واستفاقتها، وهذا المسعى في الحقيقة بات ضربا من الخيال؛ لأن الأطماع الاستعمارية أصبحت واقعا ظاهرا _ أما المجسدون الذين ينتمون للطبقة الحاكمة أو حاشيتها، ويمكنهم التغيير على مستوى القمة؛ فهؤلاء بادروا في محاولات منها التجارب التي نحن بصدد دراستها.

3 .1.اصلاحات الامير عبد القادر (الجزائر):يرى العديد من المؤرخين أن مقاومة الأمير عبد القادر تكتسي بعدا متميزا، لصبغتها الوطنية ونظرة استشرافية رائدة لبناء دولة أصيلة في كيانها ومرجعيتها ومقوماتها، وحديثة في مناهج تسييرها، ويعد النظام العسكري الذي سلكه الأمير في دولته أحد أبرز أوجه التحديث، كما تحدثت عنه المصادر الغربية والعربية بإسهاب، من حيث التنظيم والتجهيز والإعداد، كما عمل على تسليح القبائل واستنفارها وقت الحاجة لها، فالوثائق الفرنسية تشير لذلك، مما يبين بأن أي قبيلة كانت عبارة عن قوة، وتتجلى كذلك أنماط التحديث في الصناعات المعدنية والنسيجية المنتشرة في مناطق دولة الأمير، حسب توفر المادة الأولية وإمكانية الحصول عليها، كما كان الأمير يراعي الجانب الأمني في ذلك، وغالبا ما كان يشرف على ذلك خبراء أوربيون

متخصصون[1]، أثبتوا جدارتهم في إتقان عملهم؛ فحازوا على ثقة الأمير، وطمأنوا له من خلال الوفاء، ونصرته للحق مهما كان مصدره، وهذا باعترافاتهم من خلال ما دونوه حول الطابع الإنساني للأمير، وأخبروا ملوك فرنسا بذلك، كما تكشف نصوص المراسلات والمعاهدات[2] التي وقع عليها الأمير حجم التغير في سياسته الدبلوماسية نحو مواكبتها لتطورات الفترة المعاصرة؛ حيث كان حريصا فيها على مبدأ الاعتراف بدولته وسلطته، والسيادة التامة على أرضه، وانتقى لذلك فريقا رفيع المستوى يدرك معاني الألفاظ ويحدد مبتغاها ومحتواها من أمور السياسة ومن هؤلاء: قدور بن زويلة و محمد الخروبي ومصطفى بن التهامي...([3]) .

3. 2. اصلاحاتخير الدين التونسي (تونس): رسم خير الدين معالم الدولة الحديثة، ونظر لها في كتابه "أقوم المسالك" وسعى بجهوده الفردية والجماعية، لتجسيد أفكاره، خاصة لما أصبح المسؤول المباشر في البلاد _أي تولى زمام المبادرة والسلطة في تونس(منصب الوزير الأكبر)_ فاستحدث جملة من التعديلات في المجال السياسي؛ تمثلت أساسا في القضاء على معطيات الاستبداد؛ وهو الحكم المنافي لدعامة الحرية التي ينبني عليها مخطط خير الدين، ويرتبط بها محوران وهما: نقل نظم الحرية الأوروبية للمواطن المسلم، وهذا له علاقة بالسلطة القائمة، والأمر الثاني يقضي بتبيان النظم الأوروبية للمحكومين( )، كما وقف التونسي في وجه أصحاب المصالح الخاصة، ويعتبرهم سببا حقيقيا ومباشرا في

1- تحدثت المصادر عن الجيش المحمدي بشكل كبير جدا لأهميته من جهة و إعجابهم بتنظيمه وخبرته من جهة أخرى، فوصفوه من حيث اللباس والزي العسكري و من حيث الشجاعة والمهارة في القتال والمعارك والتنظيم، للمزيد ينظر: هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 86، ومحمد بن الأمير عبد القادر، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، الجزء1، المطبعة التجارية، الإسكندرية، مصر، 1903م، ص 121_ 125، وعبد القادردوخة، المرجع السابق، ص349

2- يحي (بوعزيز)، ميكيل (ودا يبالزا)، **الجديد في علاقات الأمير عبد القادر وعلاقاته مع اسبانيا وحكامها بمليلة**، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1982م، ص 9.

3- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج8، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1998م، ص 86

تدهور الأوضاع الاقتصادية وسوء أحوال البلاد، وقضيته مع مصطفى خزندار أكبر شاهد على صراعه مع تلك الطائفة().

كما حاول "خير الدين" تحديث الجهاز الإداري بمنصب وزير، لتوثيق الصلات بين الإيالة التونسية، والدول الأوروبية، وكذلك مع الباب العالي، والقضاء على المتاجرة بالمناصب، والتخفيف من الضرائب، وضبط أنظمة المحاكم( )، وشرع في توحيد الأحكام الجاري العمل بها في تونس، وهذا ما يوضح لنا شدة تأثره بالثورة الفرنسية، ومبادئها التي كانت تدعو إلى إصلاح أمور الحكم، ونبذ الاستبداد، وقد شمل برنامجه إدخال الإصلاح على قطاع التعليم، بحيث قام بتنظيم جامع الزيتونة، وحسن طرق التدريس فيه 1876م، وأسس المدرسة الصادقية 1875م على منوال الجامعات الكبرى في أوروبا، وأنشأ إدارة عامة للأوقاف، وأسند مهمتها لشيخ محمد بيرم الخامس 1874م، وقام بعصرنة المصالح الاستشفائية ( )، وأقدم على إنشاء مجلس صحي بالعاصمة وخصصه، لمراقبة الأمراض المعدية، مثل: الطاعون ... وغالبا ما كانت تأتي في البضائع التجارية، وهذه الأعمال قليل من كثير مما استحدثه خير الدين في الإيالة التونسية، لأن المقال موضوعه المقارنة وليس حصر مجالات الإصلاح بالنسبة لرجلين.( )

ويتبين من خلال الأفكار والإصلاحات التي قدمها خير الدين في كتابه "أقوم المسالك لمعرفة أحوال الممالك" أنه رغم الإسقاط الذي حاول أن يجد له تبريرا في الشريعة الإسلامية متنكرا ومستخفيا لقناعاته التي امتزجت بالانبهار في الحضارة الغربية، إلا أن المناوئين والمعارضين له ولطائفته المستنيرة رأت في ذلك تطاولا على المعهود، وهذا الأمر متوقع، وردة فعل طبيعية للحركات الإصلاحية التي تستورد الأفكار وترمي وراءها واقعية الشعوب ومكتسباتها و تراثها.

4. مقارنة بين التجربتين:

4. 1. أوجه التشابه: تتشابه المشاريع الإصلاحية بين تونس والجزائر في مرحلة ضعف العثمانيين وبداية انحصارهم في الحوض الغربي للمتوسط، ويعود ذلك لتماثل التركيبة السياسية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ويبرز ذلك من خلال الآتي:

_المشاريع الإصلاحي "لخير الدين" و"الأمير عبد القادر" عطلت عجلة تقدم الاستعمار، وفي هذا المضمار يقول صاحب كتاب " تاريخ تونس" محمد الهادي الشريف بالنسبة لمشروع خير الدين: "...عهد المصلح خير الدين (1873_1877)...أمهلت النظام التونسي بضع سنوات قبل أن يتداعى"[1] . رغم تكالب القوى الأوروبية على تونس، لأهميتها الاقتصادية، وبعدها عن مركز الخلافة العثمانية؛ أما في الجزائر، قد وضع الفرنسيون تحديدا زمنيا لاستتباب الأمن لهم في الجزائر، لكن بعد المواجهة والمقاومة من طرف الأمير، تبين صعوبة التوغل وسط الجزائر وتخوم الصحراء.

- وضعت المشاريع الإصلاحية التي حاولت التجسيد في منطقة المغرب العربي خلال القرن التاسع عشر ضمن برامجها الإصلاحية مسألة التعليم، واعتبرته قاعدة أساسية في التوجه نحو بعث روح النهضة في كيان الشعوب المغاربية، ففي تونس اعتمد خير الدين آليات وبرامج ومواد وتخصصات مستحدثة على الطراز الأوروبي، فأصبحت تدرس العلوم العصرية والعديد من اللغات كالتركية والفرنسية، كما شجع على الطباعة والصحف والنشر، واهتم بالمكتبات، ومن أبرز التي أشرف على تأسيسها المكتبة الصادقيةوالعبدلية[2]، وهي مكتبات حملت نفس صفات المكتبات التي شهدتها أوروبا من حيث التنظيم وما تحتويه من الكتب والتخصصات، هذا وما تناولناه في عنصر مشاريع الإصلاح دلالة واضحة على إدراك "التونسي" خلفية الركود في العالم الإسلامي عموما، والمناطق الغربية منه خصوصا، ونلمس ذلك بشكل أكثر من جلي عند الأمير عبد القادر الذي أولى عناية بالغة بالعلم والعلماء، رغم صعوبة الظروف، فقد خصص جزءا من وقته للبحث عن مجريات التعليم وانشغالاته، فخصص مرتبات للمعلمين وأرسل بعثات

1-محمد الهادي الشريف، المصدر السابق، ص 97.

2-إن مثل هذه المكتبات التي عمل "التونسي" على إنشائها شجعت التونسيين على طلب العلم، وتظهر ثمارها ونتائجها العلمية مطلع القرن العشرين والمتمثلة في ظهور نخبة مثقفة حملت لواء الحرية والتعليم كما ساهمت في النهوض بالمغرب العربي من خلال غزارة مؤلفاتها خاصة الصحف والمجلات والكتب التي استفدت منها جميع أقطار الأمة العربية

لجلب المخطوطات، وعمل على مكافأة الباحثين الذين أحضروا الكتب النادرة وغالبا ما كان يردد عبارة "أنا مسؤول عن الكتب..."[1].

-المشاريع الإصلاحي "للأمير" و"التونسي" لم تنتهج سياسة العزلة عن المحيط الخارجي، والتدقيق في سياستهما الخارجية يكشف مدى اهتمامهما بالعلاقات الدبلوماسية، وقد وضعت ضمن استراتيجياتهما العمل الدبلوماسي كمخطط يقيها ويبعد عنها الأطماع من جهة، ومن زاوية أخرى اعتبرت ذلك رافدا للتبادل الاقتصادي، وكسب آليات القوة العسكرية، ويستند ذلك بالنسبة "لتونسي" من خلال القدرة التفاوضية مع الدبلوماسيين الأوروبيين في العديد من القضايا، وقد أثبت أحقيته وإمكاناته أمام البايات التونسيين الذين غالبا ما أوكلوا له مهام دبلوماسية (منصب سفير)[2]، ومن خلاله اكتشف آليات الحضارات الأوروبية، وتبلورت في فكره المبادئ الإصلاحية التي دونها في كتابه "أقوم المسالك"، وعمل على تجسيدها لما اعتلى سدة الحكم، وتولى منصب الوزير الأكبر، فشكل هيئة لتوثيق الصلات بين الإيالة التونسية والدول الأوروبية، وكذلك مع الباب العالي، أما الأمير فالتدليل أبرز وأوضح في التقارير والوثائق المحفوظة في أرشيفات العديد من الدول الأوربية، وقد عمل العديد من المؤرخين الجزائريين على ترجمتها وتحليلها وبيان مدلولاتها وتأويلاتها القريبة والبعيدة، على غرار الدكتور يحي بوعزيز، والدكتور أبو القاسم سعد الله، كما أنها كشفت مستورا كان الأمير عبد القادر يتمتع به، وهو القدرة الدبلوماسية وإمكاناته التفاوضية، وبرهنت على أنه رجل دبلوماسي، يتقن فن التعامل مع القوى الأجنبية، وكيف يتقي شرها، ويكسب ودها في حالة الضرورة([3])، ويتضح هذا كذلك مع

1-برونو أتيين، **عبد القادر الجزائري**، تج، سشيل خوري، 1997م، ص ص 166_167.

2- عين سفيرا للعديد من الممالك الأوروبية مثل: فرنسا، والسويد، وبروسيا والدنمارك، وهولندا، وبلجيكا، ينظر: صالح(زكي أحمد)، المرجع السابق، ص 31.

3_ يحي (بوعزيز)، المصدر السابق، ص 9.

المعاهدات المبرمة مع فرنسا (معاهدة تافنة، ديمشال) والتي كان يركز فيها على المحافظة على مبدأ الاعتراف به كحاكم على الجزائر[1].

-تماثل الدلالات المستعملة في برامج الإصلاح، فو غم الانبهار بالزخم الحضاري الأوروبي إلا أن المفاهيم المتداولة عند كل من خير الدين والأمير عبد القادر بقيت مرتبطة بالتراكمات الحضارية الإسلامية، ويمكن أن نلاحظ ذلك التماثل من خلال الآتي: أجهزة الدول عند الأمير عبد القادر (مجلس شورى، الشورى، الرعية...)؛ أما عند خير الدين التونسي (أهل الحل والعقد الرعية....) وتختلف التسميات ذلك عن الأوروبيين (المجالس النيابية، ينتخب، الشعب)([2]).

4. 2. أوجه الاختلاف: تتضح معالم الاختلاف بين الرجلين بالنسبة للسياسات الإصلاحية الرامية أساسا لإبعاد التدخل الأجنبي في المنطقة من خلال محاور كثيرة ومنها: الإطار، الجوانب،...

- إن أكبر مفاضلة بين الطرح الإصلاحي للأمير والتونسي تمثلت أساسا في الإشكالية التي أرقت العلماء والمصلحين المغاربة منذ ظهور الحركات الانفصالية في المشرق العربي عن الخلافة العثمانية، وظهرت حولها فتاوى عديدة تتمحور في: هل يمكن الإصلاح في إطار الخلافة العثمانية؛ أي كلٌ من حيزه ومحيطه الجغرافي ومنطقته ويعتبر ذلك جزءا من الإصلاح العام للخلافة الإسلامية، أم على الشعوب المغاربية التخلص من الأتراك في تلك الأثناء(مرحلة الضعف)، والتطلع نحو بناء دول قادرة على فرض سيادتها في محيطها، وهو ما أصبح يعرف عند المثقفين "المسألة القطرية"، واعتبر أصحاب هذا الطرح أن العثمانيين هم مصدر شقاء المغاربة وسبب في التدخل الأجنبي.

1-محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 115.

2- للمزيد حول المصطلحات والدلالات ينظر حجازي فهمي محمود، المصطلحات في بداية النهضة العربية الحديثة بين المشرق والمغرب، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية،(الجزائر) المجلد 11، العدد107، ص ص 20- 25،و صالح زكي أحمد، المرجع السابق، ص 34.

-ففي تونس راهنت إصلاحات "خير الدين" على مبدأ تقوية الروابط مع الباب العالي والإبقاء على العلاقات السياسية والعسكرية والاقتصادية التاريخية بين البلدين، ومسألة الامة والدولة في كتابة يقصد بها الخلافة العثمانية[1]، وبرز التمكين لإستراتيجيته عند توليه الوزارة الكبرى في عهد "الصادق باي"، ولما كان وزيرا للبحر حتى قال فيه الشاعر" قابادوا" تأصيلا لهذا الغاية الراسخة في ذهن خير الدين:

وأمضى وزير البحر لله دره سفير لإسلانبوا يستحكم الربطا.[(2)]

ولا يمكن بأي حال استغراب ذلك فالتداعيات والمعطيات كثيرة يمكن أن تبرر تبني التونسي ذلك النهج، تستنبط من خلال معرفة شخصيته وعلاقته وأصوله ومنطلقاته والوضع العام في تونس عموما بخلاف ما كانت تعانيه الجزائر إبان الحقبة التاريخية للأمير عبد القادر، ومن غير الممكن أن يعاب ذلك، فالطرح صائب والغاية نبيلة والنزعة الدينية والولاء الروحي بادي والشوائب الذاتية لم تدنس برنامجه، بل تصدت له لما تفشت في رجال السلطة وعرقلت مسار بلوغه المرام رغم التضحيات والجهود، والمتأمل في طرح التونسي يدرك بأن الولاء للخلافة هو سبيل صد التهديدات الأوروبية، وأن أي رقعة في العالم الإسلامي انفصلت مصيرها النفوذ والتدخل الأجنبي، لهذا كان يطمح لتطبيق نظام شبيه بالحكم الذاتي بالمدلول المعاصر عبر عن ذلك بإقامة سلطة تنفيذية تحت إشراف السلطان ومنح التسيير لزعامات محلية([3])، أما الأمير فكان يرى عكس ذلك فوجود الأتراك مبرر بالخطر الإسباني وبعد تحرير المرسى الكبير1792م وتوقيع الداي حسين معاهدة الاستسلام 5جويلية1830م، انتهى الحكم العثماني في الجزائر ويستوفي الدكتور "ناصر الدين سعيدوني" في إحدى مقالته إشكالية موقف الأمير عبد القادر من العثمانيين سواء كراغلة (أحمد باي)، أو أتراكا (الدايات) بقوله: "فالأمير عبد القادر كان لا يميل إلى العنصر التركي، ولا يطمئن لجماعة الكراغلة... وقد انتهى به الأمر بعد احتجازه بوهران

1- أحمد عبد السلام، المرجع السابق، ص ص 170- 171،

2-الشيباني بنبلغيث، المرجع السابق، ص69.

3-خير الدين التونسي، أقوم المسالك لمعرفة أحوال الممالك، المصدر السابق، ص46.

عندما كان متوجها للحج مع أبيه الشيخ محي الدين إلى عدم الاعتراف بشرعية الحكام الأتراك"([1])، ويفسر ذلك بمعطيات كثيرة، منها طبيعية حكم الأتراك في الجزائر وأصوله، وبيئته... والأبرز فيها ما اقترفه العثمانيون من تصرفات لا تمد بصلة للحكم النزيه[(2)].

-ركز خير الدين التونسي على الشؤون السياسية، واعتبرها مقوما أساسيا في إصلاح البلاد التونسية، ويكون منبعه مبادئ العدالة والحرية، والابتعاد عن الملكية الفردية، وإحلال مكانها نظاما شوريا شبيها بالمجالس النيابية في أوروبا، وعبر عن أطروحاته في كتابه: "أقوم المسالك"[(3)]، كما شارك في رسم معالم سياسة عهد الأمان، الوثيقة التي وصفت بالدستور العربي ويمكن تفسير ذلك بالخلفية التي يتمتع بها التونسي، الذي دعا لضرورة الانفتاح على الدول الغربية واقتباس نظمها وحاول جاهدا أن يترجم الأحكام الفقهية إلى قوانين موحدة ليقضي على الخلاف الديني ويوحد القضاء في تونس[(4)]. أما الأمير عبد القادر اهتمبجوانب مختلفة، شملت جميع مناحي إرهاصات معالم الدولة الحديثة، ولم ينصب اهتمامه بالحياة السياسية فحسب، بل حتى ذلك الانهيار الذي نلمسه عند خير الدين كان قليلا بالنسبة للأمير في الشق السياسي، وغالبية نظم التسيير منطلقها الأحكام الشرعية [(5)] في دولة الأمير عبد القادر، باعتبار الرجل عالما وفقيها، ولهذا تم الإجماع على توليه الحكم، وعند إسناد ذلك له لم ينشغل بالبحث عن مصادر يستقي منها قوانين تمكنه من ضبط

1-ناصر الدين سعيدوني، العلاقة بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي وانعكاسها على المقاومة أوائل عهد الاحتلال، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر2، (الجزائر)،مج01، العدد02، ص58.

2-.صالح فركوس، مواقف الأمير من السلطة التركية والحاج أحمد باي، حوليات جامعة قالمة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قالمة، (الجزائر)، المجلد الثاني، العدد الثاني. ص 195.

3- خير الدين التونسي، المصدر السابق، ص 46.

4- خير الدين التونسي، أقوم المسالك لمعرفة أحوال الممالك، المصدر السابق، ص 39.

5- هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 156.

الأمور في دولته، بل عمد للتشريعات الإسلامية، وجسدها خاصة في قضايا التعامل مع النصارى وعلاقاته الدبلوماسية مع القوى الأوروبية.[1]

_يعاب على خير الدين التونسي القاعدة الشعبية التي كانت شبه منعدمة لمشروع دولته الحديثة، وقد راهن كثيرا على إرضاء الباي وزملائه المستنيرين أمثال: " أبن أبي الضياف"، و"محمد بيرم الخامس" وغيرهم... والشعوب كانت ترى في مقترحاتهم وأفكارهم والتنظيمات والمؤسسات التي استحدثوها ابتعادا عن الثقافة العربية الإسلامية ومخالفة للإسلام([2])، فهم ينتمون إلى طبقة شبيهة بالطبقة البرجوازية الليبرالية في أوروبا كما وصفهم المثقفون في تلك الحقبة ([3])، أما في الجزائر؛ "فالأمير" كان مشروعه مبنيا على القاعدة الاجتماعية، والعلاقة بينهما(بين الحاكم والرعية) تربطها مسألة الولاء الروحي قبل السلطة المادية، لما هو معرف عند المغاربة وعلاقتهم بـ"آل البيت"، وتميزت بالثقة منذ البيعة الأولى والثانية، بدءا بالأعيان والعلماء وعامة الناس[(4)]؛ إذ كان محبوبا عندهم كثيرا بأخلاقه وأعماله، منشغلا بهمومهم، ويؤكد ذلك تشرشل بقوله: "قد اشتهر بامتلاك القدرة على انتزاع الحب والإعجاب من أتباعه.[(5)]

-يختلف خير الذين عن الأمير في التعاطي مع الإصلاح والتحديث؛ بحيث أن التونسي مارسها ولامسها في الغالب نظريا وفلسفيا، وبحث في كوامن بلوغها وانشغل بفكره في إصلاح النظم والقوانين في البلاد العثمانية وأقطارها، ودعا لضرورة الاقتباس من النظم الأوروبية وتطبيق ذلك ،ما دام لا يعارض التعاليم الإسلامية، وفي هذا الصدد ورد: "كان ما يهم خير الدين قبل كل شيء... لا القوة العسكرية ولا القوة الاقتصادية... فالقوة المادية تتوقف على التربية..." ومن هذا المنطلق وصف عند الكثير بأنه رجل فكر كما أسلفنا

1- يحي بوعزيز، ميكيل ذا ايبالز، المرجع السابق، ص ص 07_11.

2- البرت حوراني، المرجع السابق، ص 117.

3- محمد الهادي الشريف، المصدر، ص 99.

4- محمد بن الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص96.

5- هنريتشرشل، المصدر السابق، ص 63.

سابقا، ويبدو هذا جليا في كتابة "أقوم المسالك" وفي الكتابات سواء القديمة أو المعاصرة التي تناولت إصلاحاته وبلورت أفكاره المستحدثة وانعكاساتها وتأثيراتها لم تجد الولاء الشعبي الكافي، رغم سعي خير الدين الحثيث ومشواره ومسيرته النضالية في سبيل النهوض بالشعوب الإسلامية تعثرت بمعطيات وأحداث عصره، والأزمات الناجمة بسوء التسيير([1])، أما "الأمير" تعاطى مع الإصلاح والتحديث بشكلها المادي؛ إذ جسد ما تناقلته الروايات المستكشفة للصناعة الحديثة في أوروبا والنظم العسكرية والمصانع ذات الطابع المتطور حسب إمكانيات تلك الفترة، ومن بينها روايات ابن العنابي "كتاب السعي المحمود"، كما اهتم بجلب خبراء في التصنيع ... ويبدو أن احتكاكه بالجيوش الفرنسية في المعارك التي خاضها ضدهم زادت من خبرته.

-فرضت المعطيات والبيئة التي ينتمي لها الأمير عبد القادر عليه تأسيس جهاز عسكري قوي جدا لتجسيد طموحاته الإصلاحية، ولتكوين الدولة ذات الطابع الحديث، فشرع منذ توليه الإمارة في تكوين جيش قوي حديث بإمكانه القضاء على المخططات الاستعمارية وتنفيذ قراراته وأحكامه، وضبط الأمن والاستقرار، وقد يكون ذلك هو السر في نجاح الأمير عبدالقادر لولا جحافل فرنسا، التي أجهضت المولود في مراحله الأولى، أما خير الدين ونظرا للتراكمات الإصلاحية في تونس الخاصة بالجانب العسكري وعدم جدواها مثل مشروع "أحمد باي"_ الذي أهدرت فيه أموالا طائلا كلفت خزينة تونس خسائر كبيرة_ فإنه أصبحت راسخة لديه فكرة أولوية التغيير السياسي والإداري والاقتصادي والاجتماعي، ويستقي ذلك من خلال الإصلاحات التي تم إنجازها خلال المدة التي تولى فيها منصب الوزير الأكبر للبلاد التونسية، ويبدو أن طرحه كان سليما إلى حد أن العسكريين التونسيين وافقوه الفكرة؛ لأن تجسيد المبادئ والإستراتيجيات والمشاريع الجديدة التي تسعى للتغير لابد أن تحدوها وترافقها قوة عسكرية، تسهر على تنفيذ متطلباتها

1 -البرت حوراني، المصدر السابق، ص 113.

وقراراتها،وهذا الأمر الذي لم يعنيه التونسي رغم رصيده وخبرته العسكري التي استوعبها في مدرسة باردوا الحربية، وهو الأمر نفسه الذي عزز من مساعي الناقمين عليه.

_إن التوافق بين التونسي والأمير في الأخذ بعين الاعتبار المستوى التعليمي كأولوية للإصلاح، وتشجيع طلب العلم والاهتمام بالعلماء، ومن الطبيعي ذلك بالنسبة لبعث الإ صلاح، بخلاف المشاريع الاصلاحية القائمة على القوة العسكرية لتمكين نفسها وفرض هيمنتها، والتوافق المشار إليه آنفا اعتراه الاختلاف من حيث تحديث القطاعات وتركيبة المدارس، فالأمير عبد القادر حافظ على الأنماط التعليمية القديمة، وعمل على التشجيع من خلال الزيارات وترتيب النفقات، وتكريم أهل العلم، وتفضيلهم على غيرهم والاحتفاء بالعلماء، و الظروف لم تكن في صالحه حتى يتمكن من إصلاح القطاعات كلها؛ أما التونسي فقد عمل على السير نحو إنشاء مدارس في شاكلة المدارس الأوروبية، وسن لاستمرارية الإ صلاح قوانين تحفظ ذلك، واستعان بخبراء أوروبيين بهدف الإصلاح والتحديث مثل الفرنسي لويس ماشويل[1].

الخاتمة:

وقع اختيارنا لدراسة مسألة الإ صلاح في البلدين (تونس والجزائر) على شخصيتين نموذجيتين سعى كل منها لتجسيد الأفكار، والدعوات التي نادى بها الكثير من المصلحين في العالم الإسلامي على غرار "رفاعة الطهطاوي، ومحمد بن العنابي، وعثمان بن حمدان خوجة، وجمال الدين الأفغاني.... وتتسم محاور البحث في النخب بحيوية علمية، تضيف قيمة للمخزون الفكري، ويستقى منها التفكير السليم والأمجاد البطولية وهم التضحية في سبيل تحقيق الأهداف والمقاصد العليا للأمة، وحماية أراضيها ومقوماتها، رغم التحديات الداخلية والخارجية، ويكون المشروع ناجحا حتى ولو لم يبلغ القمة والمبتغى المنشود، لأن العبرة بالإيمان والإخلاص للقضية التي يناضل من أجل تحقيقها.

1-فتحيمعفي، المرجع السابق، ص176.

إن الإصلاحات التي قدمها خير الدين التونسي والمقاومة المسلحة، والاستراتيجيات التي نفذها الأمير ينبعان من مشكاة واحدة وإن اختلفت المبادئ والمخططات والظروف والتضحيات والأقطار والبرامج، فإن التداعيات والأخطار التي تحيط بالجزائر وتونس في تلك الحقبة واحدة، وبالتالي كذلك الأهداف كانت تسير وفق خطط واحدة، وهذا ما يمكن استخلاصه من التجربتين عند تطبيق مبدأ المقارنة في التمايز والتشابه، وهو في الحقيقة مبدأ نستلهم منه تصورات وتطلعات وفهم معمق لظاهرة تاريخية في محيطها وظروفها، إن المقارنة لا نبتغي منها التفضيل أو المحاباة، ولا التشويه أو التزييف، وإنما التدقيق والتدليل في المادة المعرفية.

لقد اعترى سبيل المشاريع المدروسة في المقال الفشل والاندثار، واستطاع الاستعمار تطبيق سياسته الاستيطانية والاستحواذ على مبررات وجوده في المنطقة، ورغم ذلك فمخططات الأمير وخير الدين التونسي بقيت راسخة في نفوس الطامحين في رد الظلم والعدوان، ولو لم يكن لهذه المرحلة سوى أنها كشفت عن ضخامة الهوة التي أصبحت واقعا بين التقدم الغربي والتأخر الشرقي، كما يمكن استخلاص بأن التغيير في قناعات الشعوب متى ما ابتعد عن واقعيتها وعاداتها ومبادئها، كان مصيره الرفض والإعراض، وأن في الوحدة الدينية قوة مهما اختلفت الأصول والأقطار والمطامح الشخصية، ولأن منطلقات الإصلاح أساسها مراعاة تطلعات الشعوب ومشاكلهم وهمومهم لا شدة الانهيار والانفتاح، والتركيز على إصلاح السلطة وإهمال الشعوب، فإن ذلك يؤدي إلى اتساع الهوة بين الحاكم والمحكوم، وفقدان الثقة.

قائمة المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج 2،دار الغرب الإسلاميبيروت ، 1992م.
2. أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج8، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1998م.
3. أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر بدايات الاحتلال**، ط3، الشركة الوطنية النشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
4. أحمد أمين، **زعماءالإ صلاح في العصر الحديث، وكالة الصحافة العربية**، مصر،2017م.

5. أحمد عبد السلام، **مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية**، الشركة الوطنية لتوزيع، تونس، 1986م.
6. ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة (1798_1939)**، ترجمة: كريم عزقول، دار النهار للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، (د،س).
7. برونو أتيين، **عبد القادر الجزائري**، تج، سشيل خوري، 1997م، ص (166_167).
8. حجازي فهمي محمود، المصطلحات في بداية النهضة العربية الحديثة بين المشرق والمغرب، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية،(الجزائر) المجلد 11، العدد107.
9. حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، (دس).
10. الحسين (عماري)، **الأمير عبد القادر رجل دولة والقائد العسكري**، مجلة العصور، جامعة وهران، ع(14_15)، 2014م.
11. حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، تع، تح، العربي الزبيري، منشوراتANEP، الجزائر، 2005م.
12. خير الدين (التونسي)، **مذكراتي**، تحقيق وتعريب محمد العربي السنوسي، وزارة الثقافة، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 2008م.
13. خير الدين التونسي، أقوم المسالك لمعرفة أحوال المماليك، تقديم: محمد الحداد، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 2012م.
14. الشيباني بنبلغيث، **الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي 1859م/ 1882م**، مؤسسة التميمي للبحث العلمي وجامعة صفاقس، تونس، 1995م، ص 53، 54.
15. الصادق الزمرالي، **أعلام تونسيون، تقديم**: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2013م.
16. صالح زكي أحمد، **أعلام النهضة العربية في العصر الحديث**، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2001م.
17. صالح فركوس، مواقف الأمير من السلطة التركية والحاج أحمد باي، حوليات جامعة قالمة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قالمة،(الجزائر)، المجلدالثاني، العدد الثاني.
18. عبد القادر دوخة، الإصلاح العسكري عند النخبة العسكرية المغاربية خلال القرن التاسع عشر (بين التنظير والتطبيق)، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر02، العدد 15، 16 ، 2013م .
19. عز الدين حسن(مجد)، النهضة والإصلاح عند خير الدين التونسي ، مجلة أبعاد، جامعة وهران، العدد 07، (الجزائر)2018م،

20. فتحي معفي، النخبة التونسية وحركة الإصلاح خلا القرن التاسع عشر، المجلة المغاربية لدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة تبسة، المجلد10، العدد 02، 2019م.
21. محمد بن الأمير عبد القادر، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، ج1، المطبعة التجارية، الإسكندرية، مصر، 1903م، ص 121_ 125، وعبد القادر دوخة، المرجع السابق.
22. محمد بن الخوجة، **صفحات من تاريخ تونس**، تق: حمادي الساحلي، الجيلالي بن الحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م، ص328.
23. محمد بيرم الخامس، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، المجلد1، الجزء 2، دار صادر، بيروت، لبنان، ص 49.
24. ناصر الدين سعيدوني، **العلاقة بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي وانعكاسها على المقاومة أوائل عهد الاحتلال**، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر2، (الجزائر)،مج01، العدد02، ص58.
25. نزار (اباطه)، **الأمير عبد القادر العالم المجاهد**، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1994م، ص10.
26. يحي (بوعزيز)، **ميكيل (ودا يبالزا)، الجديد في علاقات الأمير عبد القادر وعلاقاته مع اسبانيا وحكامها بمليلة**، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1982م